قصيدة مصر الجديدة

[مهداة إلى نادي الخريجين في السودان ،
وإلى جميع أصدقاء « الرسالة » هناك]

للدكتور زكي مبارك

[حدثت الأستاذ الزيات أني سأنشر قصيدة أتحدى بها جميع الشعراء ، وأقول إن هذا الزهو لم يخطر في البال وأنا أنظم هذا القصيد ، فقد أوحته روحانية لا تسيطر على النفس إلا في أندر الأحايين ، فجاء كما يراه أقباساً من الأشواق العواصف بالقلب والوجدان

وفتنة الشاعر بشعره مرض عرفته جميع الأجيال ، فليس من الغريب أن أقول إني مفتون بهذا القصيد ، وأن أزعم أني قبسته من جمر الوجود

أنا أكره أن تبيت قلوب وعيون بلا قرار ولا منام ، فكيف جاز أن أزلزل قلوباً وأؤرق عيوناً بهذا القصيد ؟

كان ذلك لأني أريد أن يعرف أبناء هذا الجيل حقوق الشعر البليغ ، وأن يفهم قوم أن الكاتب الذي يعرفون هو الشاعر الذي يجهلون ، إن كان فيهم من لم يقرأ قصيدة الأسكندرية أو قصيدة بغداد]

تناسيتُكم عمداً كأني سلوتكم ... وبعض التناسي المعمد من صور الود
إذا اشتدَّ إظلام العقوق تبلجتْ ... مآثرُ تذكي نارَ معروفكم عندي
أمِثليَ ينسى ؟ آهِ مما اجترحتمُ ... على الهائم الحيران في حومة الوردِ
أأنْ خِفتُ عذَّالي فأخفيتُ لوعتي ... تظنونني صبّاً أفاق من الوجدِ ؟
غزالي بكم لم يُبقِ قلباً بلاجوًى ... وحبي لكم لم يُبقِ عيناً بلا سُهدِ
خلعتُ عليكم من هُياميَ وصَبوتي ... غلائلَ لم تُخلع على ساكني الخُلد

مضى ما مضى ، هل يرجعُ الدهرُ ما مضى ؟
وهل تتقون الحبَّ أو سالف العهدِ ؟
معاهد في « مصرَ الجديدة » أصبحتْ
رسوماً من الأشجان أحرسها وحدي
أنسري معاً فيها كما كان عهدنا
وعهدُ الهوى أشهى مَذاقاً من الشهد ؟
أتقرأها حرفاً فحرفاً كأنها ... رسائلُ من ليلى المريضة أو هند ؟
تعالَوا نُعدْ ليلاتِها الغُرَّ حسبةً ... لحبٍّ قبضتْ روحه وهو في المهد
تعالَوْا تعالَوْا قبل أن يُمسيَ الهوى ... تواريخَ لا تُغني الحبَّ ولا تُجدي
تعالَوْا ... فلن ألقى سَنَاً مثلَ نورِكم
ولن تستطيبوا جَنةَ الحبِّ من بَعدي !

تعالَوْا ... ففي « مصرَ الجديدةِ » ما بها
من النَّرجس النعسان والفُلِّ والوردِ ...
مَثابةُ أحلامي ومهوَى مآربي ... ومَنسكُ روحي في الملامة والحمد
إذا جُلتَ فيها جولةَ الفتكِ أسلمت ... مفاتحها فيما تُسرُّ وما تُبدي
وإن غبتَ عنها بعضَ ليلٍ تلفتتْ ... تُسائل عن سرِّ القطيعة والصد
شوارعها عند الأصيل مَشارعٌ ... لكلِّ محبٍّ من حبيبٍ على وعدِ
وأنفاسها بالليل كالمسكِ نفحةً ... وظلماؤها كالخال في صفحة الخد
فلا تذكروا نجداً أو الخيفَ بعدها ... تسامتْ مغانيها عن الخيف أو نجد
ولا تطلبوا نِدّاً لها في جمالها ... فالجمال الشمس في الكون من ندّ
أباريسُ أو برلينُ تحوي فُتونها
إذا ازدهرتْ بالحسن كالكوكب السَّعدِ ؟
أفي لَنْدَنٍ شِبهٌ لها في سبيلها ... إذا صفقتِ الأرواحَ جنداً إلى جندِ ؟
تجمَّعَ فيها الحُسن من كلِّ أمةٍ
كبغدادَ بين العُرب والفُرس والكُرد
ورفَّتْ بها الأنفاس شتَّى غرائباً ... من الورد والريحان والضال والرَّند
هديرُ الأماني في الفؤاد هديرُها
إذا جَدَّ جِدُّ « السَّبق » بالركض والشَّد[1]
وروَّادها في الصبح والعصر زادُهم ... إذا ما استضافوها فنونٌ من الوجد
تَشابهَ فيها الليل والصبح فاعجبوا ... لصحراء أضحت وهي من جنة الخلد
يجسِّد نور البدر فيها مُفضَّضاً ... فتحسبه درّاً يُساقطُ من عِقد
بكل مكانٍ أو بكل ثَنيَّةٍ ... بأرجائها سحرٌ يُثار بلا عمد
وما بدرها بدر السموات وحدَه ... ففيها بُدورٌ قد تجلُّ عن العدِّ
خذوا وصفها عني فلي في ضميرها ... مكانُ الضريم الحر يكتنُّ في الرَّند
ولا عيبَ فيها غير أنَّ نسيمها ... يُريد سعيرَ القلب وقداً إلى وقد
يُجِدُّ شعوري بالوجود فأغتدي ... أحدَّ سماعاً من قُوَى آلة الرَّصد
أُسجل فيها ما أشاء من المنى ... ومن خطرات الروح للشاعر الفرْد
وأنقل عنها في ضُحاها وفجرها ... أفانين أشتاتاً من الهزل والجدِّ
إذا اجتمع السُّمار فيها رأيتهمْ ... ملائك توصي بالوثيق من العَقد
وإن طَرِبوا ليلاً وللقلب حقهُ ... حسبتهم جنّاً أُقيلوا من القِدِّ
هُياميَ بها لم يُبقِ للعقل من شدًى ... بلا لُأْلُئه في غمرة الوجد أستهدي
مدينةُ من هذي ؟ مدينةُ ساحرٍ ... يرى طيبها النفّاح أذكى من النَّد
مدينة من هذي ؟ مدينة ناسك ... يُسر من الإيمان أضعاف ما يبدي

---

(١) لمواسم السباق في « مصر الجديدة » شهرة لا تحتاج إلى بيان

أرى الله في مصرَ الجديدة كلما ... رأيت بها الأزهار تنظم في عقد[1]
أرى الله فيها ما أردتُ ومن يعش ... كعيشي بها يقرُب من الصمد الفرد
حُلوليّةٌ تزدار قلبي وخاطري ... فيحيا بها عقلي ويقوى بها عَقدي
أكان الحلوليون يرأَون ما أرى ... من الحسن في قرب من الله أو بعد ؟
أمرَّ زمان فيه «مصرٌ جديدةٌ» ... بها فارس يأوي إلى فرس نهدِ
أُحبُّك يا مصر الجديدة فاسمعي ... نشيدي ولا تصغي إلى شاعر بعدي

تعالوْا تروْا قلبي على ما عهدتمُ ... وفاءً إلى غدر وصفحاً إلى حقدِ
أنا العيلم العجّاج بالرفق والأذى ... أضل أحبائي إذا شئت أو أهدي
بقايا من الرُّوح المَريد تعودني ... فأرتدُّ صبًّا جائر الرأي والقصد
أُحبكمُ ؟ ما ذا أقول ؟ لقد صَحَا
فؤادي وأبصرتُ الطريق إلى الرُّشد
عواطف جالت في ضلال كأنها ... بوارق في جُنح من الليل مسودّ
عشقتكم ؟ قد كان ذلك وانطوت ... صحائف خطتها يد العبث المردي
فلا تذكروا عهدي بسخطٍ ولا رضاً
تناسيت أو أُنسيت ما كان من عهدي

أصاليل أزجيها لنفسي عُلالةً ... عساني أُطفي ما تضرَّم من وجدي
وكيف التناسي كيف ؟ ما أكذبَ المنى
إذا حدثتني بالخلاص من القيد
أُحبُّكم حبًّا أحرَّ من الوغى ... تؤجج في سهل إلى الموت ممتد
أُحبُّكم طوعاً وكرهاً وإنني ... لأخشى الذي تخشون من ذلك الإد
برغم الذي ألقاه من جور حكمكم ... ألوذ بكم عند الخصام وأستعدي
ملاعب من لهو أثيم تمرَّدتْ ... فأمست كأقسى ما يكون من الجد
أروني بابًا للنجاة أروده ... فقد ضقت ذرعاً بالضلالة في الرَّوْد
وكيف نجاتي كيف ؟ هيهات فالذي ... سقيتم به روحي سيسرع في هدِّي
دعاني الهوى ماذا أراد بيَ الهوى ... لقد حدَّ من عزمي وقد فل من حدي
إذا رُمت أسباب المتاب تعرضت ... نسائم ريا كم فأقلعت عن هَوْدي
أأنتم نسيتم كيف كنا ولم نَدَع ... مآربَ من قبل تراد ولا بعد ؟
غرامي بكم كان الغرامَ ومحنتي ... بكم صيرتني في الأسى أُمّة وحدي
سلوا الليل في مصرَ الجديدة هل رأى
على عهده بالحب أصدق من عهدي
وهل أبصر البدر المنير بأرضها ... أصحَّ أديماً من ضلالي ومن رشدي
وهل عرفت ظلماؤها في سهوبها ... أحبَّ إليها من هياميَ ومن سهدي

لقد كنت ألقاها وللشمس ميلةٌ
إلى الغرب تستهدي النعاس وتستجدي
فأملأها وحياً وشعراً وصَبوةً ... إلى أن تفيق الشمس من نومة الخود
أتلك ليالٍ لا تعود ولم أزل ... بحمد الهوى في صولة الأسد الورد
جهلتم إذا كنتم تظنون مهجتي ... ستَسْجنحُ يوماً للسلام وللبَرْد
هوايَ هو الجمر الذي تعرفونه ... وللجمر سلطان على الحجر الصَّلْد
سأرزأُكم بالهجر والصد فارقبوا ... بَلايا تُفاديكم من الهجر والصدّ
أكان غزاي غرَّكم فظننتُم ... بأن ليس للاسراف في الحب من حد
هو القول ما قلتم فإن صبابتي ... ستبلغ ما لا يبلغ الجمر من وقد
سنون تقضت في اضطرام وحبنا ... يصاول بالعذْل المحمل بالنَّأد[1]
فهل أفلحَ العذّال يوماً وفيهمُ ... وفيون يؤذيهم خبالَ في سهدي
مساويكم تبدو لقلبي محاسناً ... فوانَ تُجزَى بالثناء وبالحمد
فمن أيّ وادٍ للفُتون تفجَّرتْ ... ينابيع هذا الحسن مرهوبة الوِردِ
أمرُّ بها ظمآن والجوُّ قائظٌ ... فأسمع همساً من وعيد ومن وعد
تلوِّح بالإشفاق عينٌ مريبةٌ ... لها ما لهذا الدهر من خاتل الكيد
وهل يعرف الحيران ضل طريقه ... بنحس رمى التلويح بالرفق أم سعد
أرى بيتكم مني قريباً وتارة ... أراه وأدنى منه أبنية السند
على قدر ما نلقى من الوصل والجفا ... يقدر ما نلقى من القرب والبعد
أذلك بيت أم كناس يهابه ... ويرهب غزلاناً به أفتك الأسد
فأيان أيان السلامة منكمُ ... وليس لطغيان الملاحة من صد
أعوذ برب الجنّ منكم وإنني ... لأعلم أن لا عوذ من سَورة الوجد
شفى وكفى أني مُحبٌّ محسَّدٌ ... يساق إليه الإفك في صورة النقد
قضى حبكم أن أجرع اللوم طائعاً ... وأن أحسب التهيام فنًّا من المجد
إذا صرت في غي الهوى ورشاده ... إماماً فقد تمت أياديكم عندي

أجيبوا: أكان الحب حلماً تبددتْ ... أشمته عند الإفاق من الرَّقدِ ؟
أكان صفاكم لمحةً جاد بارقٌ ... بلألائها في الليل يُفجَع بالرعد؟
سأنساكمُ يوماً وللقلب رجعةٌ ... على جهله للراجحات من الجد
سأنسى هُيامي ثم أنسى غوايتي ... وكلُّ ضرام في الغرام إلى خمد
أجيبوا فلي رأيٌ يقرُّ إلى مدًى ... قرار الجراز العضب في سُدف النمد
أأنتم رضيتم أن تصير حياتنا ... أفانينَ من نسك يكفنُ في زهد ؟
لكم ما أردتم، فاذهبوا ثمت اذهبوا ... إلى الوهد من وادي الخمود أو النجد
ولي ما أراد الحبُّ والحبُّ حاكم ... نرى جوْرَه فينا أبرَّ من القصد

(١) إشارة إلى قول بعض الصوفية بالحلول

(١) النأد : الحسد

بلادةُ أقوام تُعَدُّ رزانةً بكل زمانٍ عن هدَى الحب مرتدِّ
جمال التماثيل الحسان جمالكم وليس لنادات التماثيل من رفد
فختامَ ختامَ الوفاء لصبوةٍ رددتم إليها سؤلها أقبح الردِّ

أحيايَ ضاقت بى بلادى وآذنى
زمانى فأولانى من الكرب ما يُردى
إذا قلتِ أيام الشقاء إلى مدًى تعاقبنَ بالأنواء والبرق والرعد
وإن ظمئتْ روحى إلى الصفو صدَّنى عن الصفو أقوامٌ جبلنَ على الحقد
ثلاثون عاماً أو تزيد قضيتها جواداً ببذل الروح للوطن الفرد
فما نلت حظا من جداه سوى الذى يَمنُّ به أهل الوشاية والكيد
أمن أجل هذا عشت ما عشت صابراً على وثبات العزم فى الزمن الجمد ؟
بلادى بلادى، أنت ما أنت ؟ إننى أجرَّع فيك الصاب ينعت بالشهد
أأنت بلادى أنت ؟ صدِّقت ، فاصدُقى
وعودك يوماً للفتى الصادق الوعد
تسابقنى فيك الأمانى خوادعاً كواذب لا تورى بحل ولا عقد
أُساهر فى ليلى كتابى ولا أرى لنفسىَ حظ الساهرين على النرد
فماذا دها الدنيا وماذا أصابها أسفّت فأمست وهى فى خسة القرد
إلى مَن أسوق الشكوَ والدهرُ ما أرى
تماثلَ فيه شامخ القُور بالوهد
إلى الوطن الجانى شكوت كما شكا لديغٌ إلى الصم المؤرَّقة الرُّبد
أمثلىَ يؤذَى بالعقوق ولم يكن
له غير حفظ العهد فى الحب من وكد ؟
بلادى ، وما هانت علىَّ مواطن أبى كان منها فى الذؤابة أو جدى
أيشقى الثرى بالماء حتى يعودَه أطباء علامون بالجزر والمدِّ
وأظمأ وحدى فيك والنيل ثائرٌ يروز الجسور الشمَّ بالمزق والقدِّ
بلادى ، أمن جرم جنيت تحولت حياتى إلى وجه من العيش مرمدّ
لئن كان لى ذنب فذاك تولُّهى
بشرح الذى زُوِّدت فى الدهر من مجد
ستمضى الليالى ثم تمضى ولا يرى
جمالك أقوى من غرامى ولا وجدى
بلادى ، أكان الحب نوراً تطاولت
عليه غيوم من عقوق ومن جحد
توحدت مقهوراً فمالىَ إخوةٌ ولا صحبة يقوى برفقتهم زندى
توحدت لا خِلٌّ أبثُّ شكايتى إليه ولا حِبٌّ يؤرقه مهدى
إذا آذنى الدهر اللئيم بجفوة تحوَّل أهلوه إلى عصبة لُدِّ
توحدت ؟ لا ، فالأسد يؤنسها الأسى
بوحشتها فى ظلمة الكثب الجُرْدِ
ليصنع زمانى ما أراد فلن يرى سوى ساعد يلقاه بالبأس مستدّ
بنانى الذى يبنى الجبال شواهقاً وليس لحصنٍ شاده الله من هدّ
فما بال أقوامٍ تهاوتْ حلومهم يعادون بَنّاء الجبال بلا عِند[1]
يعدُّون أجناداً لحربى بواسلاً وقد جهلوا أنى سألقاهمُ وحدى
إذا اعتز بالله القدير مُجاهدٌ أذل ألوف الظالمين من الجند

أحيايَ فى « مصر الجديدة » ما الذى
دعاكم إلى تكدير ذيَّاكم البورد
به جاد دهرٌ لا يجود فكنتمُ أضنَّ من الدهر المبخل بالرِّفد
سقاكم فروَّاكم غرامى ولم أجد
على عثرات الدهر والوجد من يُعدى
تمرُّ ليالٍ أو أسابيع لا أرى على شغفى إلا مواعيدَ لا تُجدى
عذرت أحيايَ الذين تصدُّهم فيافٍ سحيقاتٌ عن البر بالوعد
عذرت الألى بالكرخ شطت ديارهم
فليس لهم عن عصمة الصبر من بُدِّ
فما صبركم أنتم وبينى وبينكم خطًى هينات قد يقدَّرن بالعد
إذا صلصل الهتّاف أصبحت عندكم وإن وسوس الهتاف أمسيتم عندى
بخمسة أرقام تدار أراكم وترأونى ، أهونٍ بذلك من جهد
تعالوْا، ولا تُصغوا لأقوال ناصح يسوق الكلام الحرَّ عن خاطرٍ عبد
نصيحةُ بعض الناس غشٌّ مقنَّع
وإشفاق بعض الناس ضرب من الحقد
عرفت زمانى فى بنيه ومن يُقمْ بعسبةٍ يسيقْ فلاسفة الهند
أنسمع لغو الحاقدين ولا نعى هدير حميّا الحسن ينصح بالوجد؟
هو الحسن فليأمر بما شاء ولتكن مشيئته ، إنّا له أطوع الجند
سمعنا، ومن يهتف به الحسن يستمع ألا إنّ همس الحسن لحنٌ من الخلد
تعالوْا فأوقات الصفاء ذواهبٌ وليس لوقتٍ قد أضعناه من ردّ
تعالوْا سراعاً ، لا تقولوا : إلى غد غدٌ عند صدق الشوق دهر من البعد
وإلا ففى « مصر الجديدة » أنجمٌ زواهر ترجو أن يكون لها ودّى
أبغداد فى عهد الرشيد تأرَّجتْ بأطيب من أنفاسها وهى فى عهدى

زكى مبارك

---

(١) بلا عند : بلا رأى